الشعراء غير العرب في غربي أفريقيا في القرن التاسع عشر «مملكتي صكتو وكانم برنو أنموذجا»

د. صالح أحمد أبوالفتح

المقدمة

كانت للغة العربية مكانة مرموقة ونفوذ واسع في مملكتي صكتو وكانم برنو فهي لغة البلاط وبها تصدر المراسيم وتتم المراسلة الدبلوماسية.وبها يتعلم الفرد المسلم ما يصلح به فرض عينه من مبادئ القراة والكتابة. وهناك من يوسع دائرته المعرفي فيتعلم بعض فروع اللغة العربية وفنون علوم الدين.وإلى جانب أولئك علماء راسخون في العلم وبرعوا في قرض الشعر باللغة العربية لإثبات الذات في الحقل المعرفي.

وهذه المقالة عبارة عن عرض نماذج من أشعار بعض من نبغ في الأدب العربي في القطر الافريقي. وستتناول اثنين من أولئك الفحول وهما: السلطان محمد بلُّ بن الشيخ عثمان بن فودي من مملكة صكتو، والشيخ محمد الأمين الكانمي من مملكة كانم برنو.

١ / أمير المؤمنين محمد بلُّ بن عثمان بن فودي:-

ولد يوم الأربعاء في شهر ذي القعدة سنة ١١٩٥هـ، ونشأ على سيرة حسنة، وحالة حميدة، من طلب العلم والفطنة والحفظ والإدراك التام، وفصاحة القول، ونصاعة الألفاظ، وسعة البلاغة.أخذ العربية والبلاغة عن عمه الشيخ عبد الله بن فودي، كما أخذ عن والده الشيخ عثمان التفسير، وأصول الدين والحديث .

توفي عشية الخميس من رجب سنة ١٢٥٣ه، وعمره حينئذ ثمان وخمسون سنة إلا شهراً، وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة.

مؤلفاته:-

تبلغ مؤلفات محمد بل تسعة وعشرين مؤلفاً في مختلف الفنون نذكر منها على سبيل المثال:-

١- «إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور»(١).

٢- «شفاء الأسقام في ذكر مدار الأحكام»(٢) مخطوط منثور يقع في ستين صفحة.

٣- «كف الإخوان عن اتباع خطوات الشيطان»(٣) مخطوط منثور، يقع في سبعين صفحة.

٤- الغيث الوابل في سيرة الإمام العادل»(٤) مخطوط منثور.

شعره:-

لأمير المؤمنين ديوان كامل يحتوي على قصائد جياد في مختلف الأغراض، كالمدح، والهجاء، والرثاء، والفخر، والزهد. إلا أن شعر الجهاد يفضل غيره قوة لأنه كتبه على صليل السيوف ورؤس السهام فجاء تعبيره واضحاً عن عقيدته التي اعتنقها، وعن مبدئه الذي دافع عنه، والمنهج الذي اختاره.

وعندما هاجر والده الشيخ عثمان بدينه. وكذلك جماعته تم لهم الإقامة بالمهجر، أنشأ محمد بل قصيدة يتغنى فيها بذلك مقرعاً بالمتقاعسين عن الهجرة(٥)، فقال(٦):-

هلا عرضت إلى شيوخي حسبة
مني رسولا فزت بالأمالي
أن يهجروا البلد القبيح فعاله
ويبادروا التحويل في استعجال

ولم ينس الشاعر بإبائه الضيم حيث فضل الهجرة على الإقامة بالذل فقال(٧):

وإذا أذيت ببلدة ودعتها
أنا لا أقيم بغير دار حلال
إن الإقامة في مقام مذلة

عجز ولؤم غير فعل كمال

وقال منشداً بشجاعته عقب معركة «جات» الثانية حيث كان هو القائد المظفر فيها والمغني المطرب بانتصاراتها:-

ألم تر أن الله أبلى عباده

بلاء عزيزاً والحروب تسعر

بما أنزل الكفار من بعد بأسهم

فهم في بلاد الله أقوى وأوفر

ولأمير المؤمنين قصيدة أخرى هدد بها أهل «غرْسَ» وذلك حين بلغه أنهم قد نقضوا العهد، فقال(٨):-

أصبحي بلغوا عن الجواب

عن العزال قولاً مستطاباً

بأني لا أزال إلى المعالي

أرقى لست من يهوى الربابا

إلى أن قال :

ولا تثقوا بعهد غرس

فإني رأيتهم سباعاً أو ذئابا

ويقول في بائيته التي وجهها إلى الشيخ محمد الأمين الكانمي رداً على رسالته التي وجهها إلى الشيخ عثمان(٩):-

ألا من مبلغ عني الأمينا

رسالة ناصح بيد اليقينا

تعلم أننا مما رمينا

به برآء فأف العذر فينا

وأنا ما تغلبنا عليهم

علواً أو فساداً قاصدينا

ولكن حين أخرجنا اعتداء

وبغيا –صاح– قمنا دافعينا

وله رائية رائعة قرضها بعد غزوة (فَافَرَا) تغنى فيها بنصرهم على أعدائهم فقال(١٠):-

ألا هل أتاها أن غزوة فافرا

شفا سقماً في القلب من حين أخبرا

شفى النفس إدبار التوارق يومها

فخابت ظنون أُغُنْبُلُ(١١) ثم أدبرا

وله في المدح قصائد كثيرة بعضها مخمسة وبعضها غير مخمسة. فقد خمس قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير وخمّس كذلك قصيدة (البردة) للبوصيري، فمدح الرسول بالأولى، ومدح صاحب البردة بالثانية.

وأما أسلوبه في التخميس فسهل غير متكلف يميل دائماً إلى التدقيق، فالتراكيب واضحة متماسكة، والألفاظ اللغوية رصينة متينة مصوغة صوغا مقبولاً لا تنافر فيه ولانشار،فيه أجاد في رسم شخصية المحبوبة أو وصف الناقة، ومهارة في سرد محاسن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وكل ذلك في قوة السبك وروعة الخيال. يقول في تخميس بانت سعاد:-

يا دار أخت لسلمى وهو عاقول

أقوت فهام فؤادي وهو مذهول

وهل لصب نآه الصب معقول

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يفد مكبول

وفي وصف عشقه لها يقول:-

عقارب العشق في الأحشاء تلدغها

والقلب بغيته فيها يسوغها

شطت نواها وأني لي مبلغها

أمست سعاد بأرض ما يبلغها

إلا العتاق النجيبات المراسيل

وقال يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم:-

من ضيغم بعزء الأرض موطنه

ومن هزبر ببطن الفيل مسكنه

بل من ليوث الثرى قد كان معدنه

من مارد من ليوث الأسد مسكنه

من بطن عثر غيل دونه غيل

وفي تخميسه لقصيدة البردة يقول(١٢):-

يا ساهر الليلة الألياء لم ينم

وأصبح القلب ذا وجد وذا ألم

وظل ذا فلق يبكي كذى لمم

أمن تذكر جيران بذي سلم

مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

وله قصيدة «ميمية» في نفس البحر والقافية مدح فيها البوصيري صاحب البردة في مدح رسول الله صلى

الله عليه وسلم ومطلعها:-

ما بال عينك طول الليل لم تنم
تبكي دما بدموع فيض منسجم

وفي مدح البوصيري يقول:-

أعظم بما نال من مجد ومن كرم
ومن عطايا من المولى ومن نعم
هو المحب الكبير الشأن إن له
في العاشقين مقاماً راسخ القدم
حب النبي وخادمه وشاعره
أعظم بما نال في الأمداح والخدم

ومن قصائده في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم هائيته التي استهلها بقوله(١٣):-

أيا طيبا من طيبه طاب مبدءه
ويا طاهرا من طاهر طاب منشاه
ويا أول الأشياء خلقا وآخرا
لهم مبعثا يا عاقبا جل معناه
فإنك أول شافع ومشفع
وأول من تنشق عنه بأخراه

وله قصيدة أخرى في مدح الرسول يقول فيها:-

يا راكبا جملا جميلا بعكا
حي الحبيب وصله مني مالكا
خبره أني في أساري حبه
والقلب مني في سواه تجككا

و يقول في قصيدة يمدح بها الصحابي سعد :-

هنيئا لخال المصطفى المنتقى المهدى
ومن مثل سعد في الكمال وفي السعد
أتى سابعا في الدين بل هو ثالث
لسبعة أيام كما جاء في السعد

ويقول في رثاء محمد بن السيد المختار الكنتي(١٤) :-

سيدي وابن سيدي وإمامي
وعريفي وعمدتي وطبيب
من تجلى بكشفه كل معنى
وتبدي وبان كل مريب

وقال أيضا في مرثية عمه الشيخ عبد الله بن فودي :-

إن الرزية لا رزية مثلها
رزء غدا الإسلام مثلما به
خطب جديد حل من فقد الذي
في العلم ليس له أخ من مشبه
وعفت مدارس للعلوم وأوحشت
أركانها من فقد قاض نحبه

يلاحظ في الأبيات أن الشاعر يتحسر لعموم الخسارة لفقد هذا العالم الجليل، حيث عمت الخسارة الأمة الإسلامية جميعها. الأمر الذي أدى إلى إصابة أركان مدارس العلم بالوحشة فبكت فنون العلم كما يبكي بنو البشر.

وله قطعة رثى به ابن عمه محمد بن عبد الله بن فودي وأخاه عبد القادر بن الشيخ عثمان الذي استشهد « بأَنْكَ « استهلها بإظهار الحزن والأسى الشديدين على ما أصابه حتى شبه نفسه بورقاء على غصن أيكة فساجلها قائلا (١٥):-

رميت بسهم ذات ودقين في قلبي
فيا لفؤاد سيم كرب على كرب
لفقد شهيد قد ثوى الخير خيمة
كريم شريف نفسه مدره الحرب

ومن مراثيه أيضا مرثيته التي رثى بها أخته وبقية اخوانه الماضين إلى رحمة الله يقول في مستهلها(١٦) :-

أيا دهر الناعات
تولى بالرزيات
فزفقا بالقواريـر
قلوب كالبليات

إلى أن قال:-

وفي قربى وذي رحم
وأخوال وخالات
فإن الموت أفناهم
وجيران وجيرات
فأمست دارهم وحشا
فاضحوا بين أموات

وله أبيات فخرية مبثوثة في ثنايا قصائده فهو القائل(١٧) :-

أنا ابن عثمان مقوى ساعده
أدافع الكفار عن مقاصده
والبر يحمى عن حريم والده
والعاق مغبون ولو في تالده

ويقول مهددا خصومه(١٨) :-

ألا أبلغن عني وأن كنت نائيا
ولاة يروح الجور منهم ويرفع
وإن نحن أو ذينا نفر بديننا
إلى الله إن الأمر لله راجع
فإن تنتهوا عن غيكم قد رشدتم
وإلا فحرب بيننا متوقع

وقد نظم قصيدة صنف فيها الناس على اختلاف مشاربهم ، ويبدوا أنه قدنظمها بعد أن اكتملت شخصيتة العلمية والمعرفية ، وخبرب أمور الحياة وسبر غورها ، فقال معبرا عنها(١٩) :-

من ازداد سناد ولم يكتسب
علوم التجارب فهو الغبي
ومن نال علما ولم يكتسب
به عملا صالحا فغوى

وله في وصف المعارك بائية وصف بها معركة « جات « التي وقعت بين أصحاب الشيخ عثمان وجنود ملك « غوبر» حيث صور هجوم الكفار على المسلمين في قمر بيوتهم وحصنهم أياما إلى أن من الله على عباده المؤمنين بالخلاص والغلبة على الكفار بعد البأس والخذلان ، وفيها ذكر من قتل من الكفار في عدة بلدان كما افتخر برجوع جيشه سالما وغانما(٢٠) فقال(٢١):-

ولما تقاربقنا وزادوا طغية
أذن الأمير لأسده الضراب
حتى رأونا أننا لا نثني
من رميهم وتضارب الضراب

وأما رائيته فوصف فيها زحفهم على العدى مع تحديد زمن الزحف ودقة الرماية، ووقت الاستيلاء على مواقع الأعداء، فقال(٢٢):-

إذ زحفنا لهم وقت الضحى
بجنود كجراد منتشر
فأشر أبو فرمينا مثلها
فأقمنا هكذا حتى الظهر
فدعوناهم نزال للوغى
فدخلنا حصنهم وقت العصر

وله في الشعر التعليمي كتاب سماه نظم « العوامل» في النحو، وأصله كتاب العوامل للشيخ عبد القادر الجرجاني.

ذكر فيه الإعراب وأنواعه الأربعة : الرفع، والنصب، والحفض، والجزم، كما أشار فيها إلى ما ينبغي للطالب الراغب في الإعراب معرفته، فقال في مطلعه(٢٣):-

الحمد لله الذي قد رفعا
سمك السماء قد بناها سبعا
وخفض الأرض التي دحاها
وبالجبال فوقها أرساها

وفي آخر أيامه تنسك، وعاد من الجهاد الأصغر بالسلاح إلى الجهاد الأكبر بالأذكار لمجاهدة النفس، وبالقلم لبيان أحكام الله. فصار متصوفاً يحاسب نفسه بنفسه حتى تنقى وتطهر. ويصور لنا هذه الحالات النفسية في قوله:-

أبعد الشباب زمان بهى
وبعد الجهام حيا وحيي
كأن الشباب راء على
فألقيته وأتاني عتى
وعاد خيالا وطيفا وصبا
تولى وجاء المشيب العشي

وله قصيدة نونية هي الأخرى في مجاهدة النفس وذكر الموت يقول فيها(٢٤):-

ألا يا نفس ويحك حديثي
حديثا صادقاً لا تكذبني
أليس الموت محكوماً عليك
ولو عمرت ألفا من سنين
ولو عمرت ويحك عمر نوح
لكان الموت قطعاً زائرين

ومن قصائده التي تمت إلى التصوف بصلة رائيته التي مطلعها(٢٥):-

ولما تنبهنا ذكرناه وحده
ولم يبق أنس دونه وحضور
وما العلم والأعمال والكشف كله
سوى حجب وإنه لغيور
رجعنا إلى دين العجائز بعدما
عبرنا بحوراً دونهن بحور

٣ / الشيخ محمد الأمين الكانمي

هو مؤسس دولة كانم برنو محمد الأمين الكانمي بن محمد (نِنْكَ) الكانمي. نشأ في بيت علم ومعرفة وأدب منذ نعومة أظفاره، ودرس القرآن الكريم والعلوم العربية والإسلامية ثم بعد ذلك رحل إلى البلدان الخارجية لطلب العلم وزيادة المعرفة وعن مولده يقول هالت (Hallet) أغفلت جمع المراجع ذكر تاريخ ميلاد الكانمي ويذكر أن محمد الأمين الكانمي كان يبلغ من العمر ثلاثين ربيعا وقت ظهوره على مسرح الأحداث في برنو عام (١٨٠٨م). وكانت وفاته سنة (١٨٣٥م) (٢٦).

شعره:-

أثبتت الدراسات نسبة أعمال أدبية كثيرة إلى الشيخ محمد الأمين الكانمي ما بين منثورة ومنظومة. لكن معظمها ضاعت نتيجة للاضطرابات التي سادت في المنطقة لفترة من الزمن. لكن أشهر أشعاره تتمثل في ثلاث قصائد هي:-١/ نسيم الصبا.٢/ ونصيحة الحكام.٣/ ويا طيب الأسماء.

١ / قصيدة نسيم الصبا

مناسبتها:-

يحاول الشيخ محمد الأمين الكانمي أن يعبر عن فرحه وسروره على انتصاره على أعداءه ويشكر الله الذي كتب له النصر، قرضها سنة ١٨٢١م. حين فتح بلاد باغرمي وانتصر عليها والقصيدة من البحر الطويل وتتكون من ثمانية وعشرين بيتاً.

يقول في مطلعها:-

نسيم الصبا إن جئت ربعا بكوكو
وشاهدت ما الباب من متردد(٢٧)
يسائل ريح الصبح والعصر هل أتى
من القوم ذو زاد وغير مزود

ولما انتهى من البكاء على الأطلال ووصف الديار انتقل إلى الغزل ووصف محبوبته وفي ذلك يقول:-

لينهى إلى خود أطالت سهادها
بشائر تنفى ما لدى الجاش من وجد
كحيلة طرف ضارع البان قدها
مليحة أوصاف موردة الخد
كعوب لعوب من رخاويد قومها
ومبسمها الكافور في نفحة الورد
موحشة إنسية شرح حالها
جمال دلال للوصال وللصد

ثم بدأ يتناول غرض القصيدة التي من أجله قرضت وهو إبداء الشكر والثناء إلى الله تعالى حيث يقول:-

بأن عظيم المنى جل ثناؤه
حبانا نهارا في الطغا ذو الحجد
أباد جنود الشرك بعد عتوهم
وباءوا بأنواع من الخزي والطرد
أتيناهم يوم الخميس بجحفل
كصيب مزن هد بالبرق والرعد
لا ماء إلا الضامرات وفوقها
كماة من الأبطال والأسد والورد
بعزم وحزم آخذين سماهرا
وما ثم إلا من يقول أنا وحدي

وألفاظ القصيدة كما يبدو جزله ورصينه مناسبة مع جو الحرب الذي يتطلب وشدة وقوة ويدل هذا على براعته ومعرفته بأسرار العربية وقواعدها.

٢-قصيدة نصيحة الحكام

أما الأسباب التي دعت الشيخ إلى قرضها فهي لما وجد أن أهل بلده تركوا السنة والشريعة، وانتشرت فيهم البدع التي تخالف المبادئ الأساسية الشريعة وتابعهم في ذلك الحكام والقضاة نظم القصيدة. والقصيدة تتناول

النكاح والطلاق والنشور والخلع واللعان وغيرها.

استهلها بقوله :-

بسم الله أبدأ النظاما

ومنه أرجو العون والتماما(٢٨)

الحمد لله شديد الحول

ثم صلاته على الرسول

محمد وآله وصحبه

وتابع من عجم وعرب

ثم بدأ بذكر الغرض من نظم القصيدة وهو الأمور التي تخالف أحكام الشريعة وكان يتعاطاها أهل كانم من البدع والخروج عن قواعد الشريعة حيث يقول:-

وبعد إني قاصد بنظم

نصيحة الحكام أهل الفهم

منبا لهم على أمور

قد خالفت مذاهب الجمهور

انتقل يتكلم عن المنكرات التي ترتكب قبحها ومنافاتها للدين وذلك حيث يقول:-

من ذاك ايقاع الطلاق جبرا

إن زوجت داعت إليه نكرا

من غير ضر لا ولا من عدم

منفقة ككسوة ومطعم

بل تدع كراهة منها فقط

فيحكمون طوعها وذا غلط

وتحدث بعد ذلك عن مسائل الطلاق فقال:-

إذ الطلاق بالنشوز باب

بينة الحديث والكتاب

إن كان من زوج عليه طلعت

أو منهما كذا وقيل خولعت

أما الذي يكون منها وحدها

فلا تجاب وليرد قصدها

إلى أن وصل إلى آخر قضية وهو حكم الأغراض فقال:-

ما يفعل اليوم بذي الأراض

من حكمهم في أمر الاعتراض

إن زوجة قالت به وانكرا

زوج معظما لما قد ذكرا

يعني ذا بالوطء يلزمونا

بخلوة والناس ينظرون

وتتسم ألفاظ القصيدة بسهولة الألفاظ وقرب المعنى. وهذا من الشعر التعليمي الذي يهدف إلى تثقيف الأجيال الناشئة.

٣-قصيدة أيا طيب الأسماء.

توسل الشيخ بأسماء الله الحسنى والأنبياء والملائكة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم والآل والأصحاب والتابعين والصالحين والأولياء.

يقول الشيخ:-

أيا طيب الأسماء يا من هو الله

ومن لا يسمى ذاك الاسم إلاه(٢٩)

ويا حسن الأوصاف بأحسن الثنا

ويا محسنا عم الأنام بحسناه

هو الله في الأرضين هو الله في السما

هو الله ما أحلى ثناه واشبهاه

ثم شرع يذكر أسماء الله الحسنى:-

وهو هو الله الذي لا إله في

السموات والأرض يعبد إلاه

ويا عالماً غيباً كعلم شهادة

محيطا بأقصى الشيء منه كأدناه

ورحمان دنيانا يعلم أولى الدنا

رحيم يخص المؤمنين بأخراه

ثم بدأ يتوسل بالأنبياء والملائكة وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم، حيث يقول:-

وبالأنبياء ثم الملائك جملة

بمن لم يسم الذكر منهم وسماه

وجملة أزواج النبي وآله

وأصحابه ممن رواه ووالاه

وبالتابعين الكل من بعد صحبه

ومن رضى الرحمن عنه وارضاه

وتمتاز القصيدة بظهور المعنى والخلو من التكلف والتعقيد.